الاصباغ

لم يكن بياض البشرة فى مصر القديمة يعتبر جمالا ، ذلك أن شمس مصر اللافحة تخرج ذلك اللون الخمرى البديع ، الذى يجعل من بشرة المصريات خلابة وظرفا لاتصل اليه البشرات الاوربية البيضاء الناصعة ، اذن فقد كانت النسوة المبيضات اللون تسعى الى الوصول للمثل الأعلى فى جمال البشرة ، فيعمدن الى الحناء وهى من النبات المصرى الاصيل فيصبغن بها أجسامهن ووجوههن لتصبح لهن تلك البشرة النحاسية الخمرية الظريفة .

وهذا ما يطابق تمام المطابقة الغرض الذى استعملت فيه « البودرة » الاوربية . اليس منشأ البودرة هو الحصول على بياض يقترب من بياض المثل الأعلى للجمال الاوربى ؟

والأحمر ؟ فيم تحتاجه المرأة الخمرية اللون ؟ المحمرة البشرة بطبيعتها ؟ ثم أى جمال تشاهده الآن فى تلك الشفاه الحمراء فى لون (الطماطم) بين خدود خمرية وشعر أسود فى لون الفحم ؟ إنها تبعث فى العين تنافراً قل أن يرضى أحدا .

لهذا لم يعرفه المصريون فى زينتهم مع معرفتهم للونه ومسحوقه فى تلوين الجدران البيضاء ، وفى التصوير على الفخار ، وفى الكتابة على البردى . . . .

لكنهم عرفوا (الكحل) ووضعوه فى عيونهم ، وجعلوا منه الوانا متباينة بين الاسود الفحمى والأخضر القاتم ، والازرق الداكن ، والعسلى الغميق ، وكلها لتطابق الوان الشعر والعيون والاهداب ، وتتمشى مع تناسق ألوان هذه الاجزاء فى الجسم .

* * *

واليك صورة جميلة للمرأة المصرية القديمة :

« امرأة رشيقة فى ثوب رقيق ناعم من الكتان ذى ثنيات طويلة يستر كل جسمها ويدل على مواضع الجمال الطبيعى فيه ، ذات وجه خمرى يبدو فوق هذا الثوب الانيق بجماله الطبيعى ، خفيفة حمرة الشفاه ، بيضاء الاسنان ، سوداء العينين مكحولتهما بكحل يطابق لونه لون حبة عينها ، مرسلة الشعر الاسود فى ضفائر على كتفيها ، ينتشر اريجه وطيبه وعطوره ، وتضع فى قدميها صندلا رقيقا يزيدها رشاقة وأناقة . .

هذه هى مثل الاناقة المصرية ، والتواليت المصرى منذ خمسة الاف عام ! . . ؟

حى بن يقظان

لمحة عن النظريات والمذاهب الفلسفية التى توحيها مطالعة الكتاب

لكتاب حى بن يقظان مقام جليل فى تاريخ الفلسفة العربية ، سجل لصاحبه شهرة واسعة فى القرون الماضية لاسيما فى بدء نهضة الافرنج . ولانزال نذكر الى الآن مؤلفه ابن الطفيل كلما طالعنا كتاب « روبنسن كروزو » لديفو الانجليزى ، فنحن وان كنا بغير حاجة فى هذا العصر الى مافى هذه القصة من نظريات عقلية أو مذاهب عملية نرتب عليها أعمالنا فى الحياة ، لانزال نحفظ لمؤلفها فضل الاسبقية فى مثل هذا الفن القصصى الفلسفى ، ونريد أن نذكرها كلما اتينا على ذكر ديفو وبطل قصته روبنسن كروزو . ولست أريد من ذلك ان قصته روبنسن هى ككتاب حى بن يقظان قلباً وقالباً ولكن أريد ان اشير الى شبه فى الفكرة ومجانسة فى الفن القصصى .

ولننتقل بعد هذه الكلمة الى مانحن بصدده من استخراج النظريات والمذاهب الفلسفية من قصة حى بن يقظان لنتبين قيمة هذا التراث الفلسفى الخيالى فى أدبنا العربى

لانريد ان نقول - قبل أن نأتى على تلخيص القصة - ان ابن الطفيل قد ضمنها زبدة التعاليم الفلسفية العربية ، والمذاهب العملية وصاغها فى قالب خيالى جذاب تستشف من ورائه شخصية الفيلسوف الوادعة ، وفكرته الخاصة التى تنهتك سراعاً للخبير ، فكان بذلك سابقاً لديفو واضرابه من الافرنج القصصيين :

فأول مايستلفت نظرك أيها القارىء الكريم من هذا الكتاب هو عنوانه الرمزى الغريب : حى بن يقظان . فمن هو هذا « حى » ؟ وابن من ؟ ابن يقظان . . . هذا الاسم رمزى فى مدلوله وهو فى عرفهم ابن من لاينام أى الله عز وجل

وتفتح الكتاب فاذا هناك مقدمة وجيزة فى نقد الفلاسفة الأسلاميين ، ونظرة سريعة فى الحكمة المشرقية سيشرحها لك منفصلا عند الحديث على بطله حى

كل الكتاب نظريات وثبت للمذاهب الفلسفية ، فأول ماتفاجا به أيها القارىء هى هذه النظرية ، نظرية التوليد من غير أم واب ، فيدهشك هذا القول من فيلسوف إسلامى ويغضبك خصوصا اذا كنت من اصحاب الايمان الحار ، ويأخذ بك ابن الطفيل فى منعرج هذا المذهب الوعر الذى يصعب علينا حله واتباعه ، ويستطرد فى كيفية تخمر الطينة تحت اشعة الشمس وعلوق الروح بها ، فيلذك الاستطراد ولا يعجبك الاعتقاد ، والحق يقال ان هذا المذهب

الطبيعى الذى يبنى مبدأ الخلق والتكوين على الصدف والتصادف والذى يعتنقه الكثيرون فى عصرنا - وما اكثر المذاهب والآراء فى هذا العصر - غير مبنى على أساس متين ولا براهين جلية بحيث تقتلع من صدرك الايمان بصحته . فالمذاهب الفلسفية ، الاقوال فيها كثيرة ومختلفة ، وليس هناك دستور واحد فى البحث تتمشى عليه ، وحقيقة واحدة تتفق عليها . ففى المسألة الواحدة تجد قولين أو ثلاثة أو اربعة ، والانسان عندما يكون مترددا فى مسألة ما ، تكثر تعاليله وحدسياته . فابن الطفيل مثلا لا يجزم بصحة هذا المبدأ الطبيعى كما هى عادته ، فيأتيك بقول آخر أعم وأشهر ، ولكنه ليس بنظرية بل تعليل ثانوى لكيفية وجود حى بن يقظان فى جزيرة من جزائر الهند تحت خط الاستواء ، فقد اختلفوا فى وجود هذا الشخص فى هذه الجزيرة المنقطعة عن السكان المقفرة من بنى الانسان . فيقولون ان حيا كان ابناً غير شرعى وان أمه أخت ملك قد وضعته فى صندوق وقذفت به فى اليم ، فقاده المجرى المائى الى هذه الجزيرة «الاستوائية» وهذا القول اقرب واخف وطأة على القارىء من الأول ، اذ يعرف ان موسى أيضاً قد قذف به فى اليم ، ولديه على ذلك نص وهو القرآن

قد فرغنا من استخراج هذه النظرية وسللناها من طيات هذا السفر الجميل ، فاتبعنى أيها القارىء الكريم لنستطلع بعد ذلك خبر ما آلت اليه حال هذا الطفل البائس الذى سيكون له فيما بعد شأن يذكر .

رمت به الأمواج الى شاطىء جزيرة تحت خط الاستواء ، وكم يكون جزعك على هذا الطفل عند ما تعلم ان هذه الجزيرة خالية من السكان . ترى من يغذى هذا الطفل ، ومن يشفق عليه ويشمله بحنانه ، اذ لا انسان يعطف عليه ويحسن رعايته ويوفر له أسباب الحياة ؛ ولكن كم يكون فرحك عظيما عند ما ترى أن ظبية من بنى الحيوان قد رئمت به ، ووجدت فيه تسلية وعوضاً عن ابنها المفقود ، فغدت تغذيه بلبانها وتشمله بحنانها ، حتى درج وأصبح قادراً على المشى والعدو مع أمه فى البرية ، وما ان صار على رأس أسبوع من عمره أى سبع سنين ، حتى صار يرافق أمه فى غزواتها ، يناشدها بأنغامها وتناشده ، فاذا سمع تغريدة عندليب حاول تقليده ، واذا سمع فحيح أفعى أو زئير أسد لم يحاول الابتعاد ولم يوجس خيفة ، وتكررت هذه الأصوات على سمعه فوعاها ، وغدا يرددها فيجيدها . وهنا أيها القارىء الكريم تعرض لنا نظرية غامضة ولكنها جميلة ومشوقة ، فلنتئد فى درسها وتحليلها قليلا . النظرية هى نظرية النطق والكلام . أخلق الانسان متكلما لغة أجاد فهمها منذ البدء أم علمه الله اياها ؟ واذا كان ذلك فلماذا لم تتفق البشر عليها ؟ وما تعليل كثرة اللغات واللهجات التى نسمعها وما هو علة هذا الاختلاف ؟

كل ذلك - أظن - جدير باسترعاء خاطرك وانتباهك ، وهو يوقظ فى نفسك حب الاطلاع والتعليل ، وتريد أن تفكر وان تجد تحليلا فلا تجد ، فيؤول بك التفكير الى حدس بحدس . وتخمين بتخمين لا طائل تحتهما ولا جدوى . فابن الطفيل لا يبدى لنا الا قولا واحدا فى كيفية نشوء اللغة عند الانسان وهو ليس من أرباب الوحى والالهام الذين يقولون ان الله أوحى الى الانسان أن يتكلم فتكلم ، وهو ليس من الذين يقولون ان الله خلق الكلام وخلق فى الانسان المقدرة والقوة على نطقه . كلا ليس ابن الطفيل فى شىء من هذا ، وهو على مذهب البعض من المحدثين فى القرن التاسع عشر ؛ فهؤلاء يعللون نشوء اللغة أى النطق بأن الانسان فى طوره الهمجى طور الغريزة الحيوانى يتلقى أصوات الحيوان ويقلدها فى جرسها ونغمتها ، ويضعون لذلك مقاطع طبيعية دارت على ألسنة البشر أجمع فى طور وحشيتهم ، توجد فى جميع اللغات الحية وهى إد ، آر ، آد . . . وما أشبه ذلك على أن الاختلاف الذى نراه ناتج عن سنن التباعد والتقارب فى أخلاق البشر وأميالهم الطبيعية .

فانت ترى ان ابن الطفيل من هذا الرأى وان « حيا » قلد الحيوانات فى أصواتها ولم يجد التكلم فى بدء أمره بدليل ان ابن الطفيل يتيح لبطله حى مصادقة اسال فيعلمه الكلام وأمور الدين . فحياة حى هى اذن نفس حياة البشر فى طور وحشيتهم وهمجيتهم . ولكن ابن الطفيل لا يقف عند هذا الحد ، ولا يريد أن يسرح بطله مع الحيوانات بل يرقى به الى مستوى فكرى سام تقصر عنه المدارك ، ويريه أشياء لم تقع على سمع أحد « ولا خطرت على قلب بشر » .

فانه بعد أن يعلمه الأصوات يريد أن يعلمه الطب كما تعلمه كلية الطب فى بيروت لتلامذتها ، وان يطلعه على علم التشريح وما فيه من سر دفين . وماتت الظبية أمه ، وقعد للبكاء عليها ولزم الحزن أياما ينادبها فلا تعى ولا تجيب ، ويندبها فلا تأبه لتحرقه وبكائه ، وأراد أن يعرف موطن الآفة فى جسد أمه محاولا انقاذها مما هى فيه ، وبطريق النظر والاستدلال يفتح جوفها ويتوصل الى القلب المركز الرئيسى لجميع الأعضاء ، ومنه الى الدماغ فلم يجد بها آفة ، حتى اذا ما انتهى من البحث والاستقصاء اتى على علم التشريح بكامله ، وتحصل له من ذلك : ان ما يحرك الجسد انما هو بخار يتولد فى التجويفات القلبية فيصعد منها الى الدماغ ، وهذا بدوره يحرك الأعضاء . وهذا ماقال به ديكارت معبراً عن هذا البخار بالأرواح الحيوانية Esprits animaux .

قد يدهشك مثل هذا البحث المنظم الذى يقوده حى بن يقظان ، وهذا الاستدلال الثاقب ، ويضؤل فى نفسك شخص ابن الطفيل

القصصى ليتجسم لك فى شخص حى الطبيب الحاذق والمشرح اللبق ؛ والحق يقال أن ابن الطفيل بعد أن يرتفع بخياله يكبو به جواد هذا الخيال ليحطه الى الارض . لذلك كان الفيلسوف الطبيب ، ولم يكن الفنان القصصى بالمعنى الواسع لهذه الكلمة . فمن الغريب أن يكون حى قد استكشف مثل هذه النظريات والتطبيقات العملية فى مثل هذه المدة الوجيزة ، فاننا نرى فكراً سامياً يتوصل بمحض فكره الى الحقيقة ، لا فكراً وحشياً غريزياً يليق بمثل حى ؛ ولكن هى قصة أقرب الى : « الاوتوبيا » منها الى الحقيقة الملموسة . ولا نجزم بأنها نظرية، ولا نريد أن نناقشها بل نترك ابن الطفيل وتلميذه يعلمه ما يشاء وكيف يشاء ، على أننا نستشف من خلال البحث عن كيفية تعلم حى بن يقظان على نظرية النشوء والارتقاء فى العناصر الطبيعية وفى مدارك البشر ، وكيف أنها تنتقل من الملموس الى المحسوس الى المعقول، وكيف أن الحواس تتصل بالاشياء الخارجية فتؤثر هذه فيها وتنفعل عنها فتحولها (أى الحواس) الى دائرة التفكير والتفهم فتصوغ ما أحست بقالب السبب والقانون .

ويفقد حى أمه ويخرج الى معترك الحياة وحيداً طريداً . فكل شىء فى قطر وجوده يستلفت نظره ويسترعى انتباهه ، فهو كآلة واعية — اذا كانت آلة تعى — وضعت فى مكان ما تلتقط كل ما اوحى لها من حيث القى أو أوحى. فتسجل حركات الاشياء وتنفعل عنها ، وهل الانسان — كما عرفه بعض علماء النفس — الا مجموعة من المؤثرات الداخلية والخارجية تجمعت فشكلت هذه النفس التى تعى وهذه النفس التى تفهم وتتذكر ؟

ويستكشف « حى » النظريات ويستدل بمحض فكره السامى وثاقب ذهنه على وجود « واجب الوجود » وهذه النظرية هى محور القصة بكاملها وهى التى شغلت جميع فلاسفة الاسلام . ويستكشف « حى » مبدأين : المادة والصورة ، بواسطتهما يتوصل الى اكتشاف وجود الله ، فاعتبر : « أن كل حادث لا بد له من محدث » فلمس هذا المحدث فى المحسوسات فلم يعثر عليه ، وانتقلت فكرته الى الأجرام السماوية ورسخ فى ذهنه أنها تعقل ذواتها ، وأنها صادرة عن فلك واحد وهو الاعلى . وهنا يجب علينا أن نقف قليلا ونشير الى هذه النظرية التى كانت شائعة عند اليونان والتى اقتبسها العرب ولا سيما ابن سينا ، ووسعوا دائرتها . فانهم اعتقدوا أن الاجرام السماوية تعقل وتحيا وفيها العقل الفعال الصادر عن الله عز وجل، وأن الله يعلم ما فى الكون بواسطتها وهى أشرف الموجودات . وقديما دعوها أنصاف آلهة . ونتجاوز عن تفنيد هذه النظرية الخرافية التى تعد — الى جنب المباحث الفلكية العصرية — خرافة من خرافات القدماء .

ولما عرف « حى » حقيقة نفسه وانها غير أجسمانية وبها عرف « الموجود الواجب الوجود » حدث له شوق حثيث الى معرفة الخالق عساه يراه، فشرع فى تفحص الأعمال التى تقربه إلى الله عز وجل ، فوجد أن الطريقة المثلى هى : فى ترك المادة وتثقيف الروح التى هى مبدأ روحانى صادر عن الله تعالى ، ولما كان يعلم ان الاجرام السماوية تعرف الله ، التمس لنفسه الصلاح بالتأسى بها ليتوصل اليه ، وهنا يعتنق حى مذهب الاتصال وترويض النفس والعزوف عن الاشياء المادية كما كان يفعل متصوفة المشرق . الا أن هناك فرقا كبيراً بين المذهبين يجب أن تنتبه اليه أيها القارىء ألا وهو : أن المتصوفين يصلون الى الله عز وجل عن طريق العاطفة الدينية والعلم الالهى ؛ أما حى المتصوف النظرى فيتصل بالله عز وجل عن طريق البحث والنظر، ويجهل تماما طرق الصوفية الدينية ، وعلى هذا المذهب مذهب التصوف النظرى سار فلاسفة الاندلس فولدوا بذلك نزعة جديدة ضد التصوف الدينى الشرقى . على أن ابن الطفيل إن اختلف مذهبا لم يختلف عنهم نتيجة بل أدى به هذا المذهب الى القول بالفنا والحلول ، ولكنه حلول معتدل مغشى بستار القصة الخيالى . فانه عند ما يفنى حى فى الذات الالهية ويوشك أن يعتقد أن ذاته لا تغاير ذات الله ، وأنه هو الله ، يبادر ابن الطفيل ليبدد هذا الاعتقاد، ويقول على لسان بطله « حى » : ان هذه الهواجس التى عرضت له وأقنعته أنه ذات الحق، لم تكن إلا من بقايا المادة والأشياء الدنيوية. وهذه النظرية هى ما ندعوها بنظرية الشمول النظرى Sdéalisme panthéistique . ولا نريد أن نبحث فى مثل هذه النظريات الالهية بل نترك الخوض فيها إلى أولياء الله العارفين، تعالى الله عما يصفون.

فابن الطفيل اذاً يفضل الوصول الى الله عن طريق البحث العلمى النظرى ، ويمثل لنا هذه النظرية ويدافع عنها فى شخص « حى » وانه استطاع بنظره وفكره السامى اكتشاف الحق تعالى ، بدليل أن ابن الطفيل يدخل فى القصة شخصاً آخراً « أسال » وهو العقل المهتدى الى الله عن طريق الدين والاجتهاد. فيعجزه عن الوصول الى المقام الذى توصل اليه حى « وطلب حى مقامه الجليل فبلغه واقتدى به اسال حتى اقترب منه أو كاد » فلا ريب بعد ذلك فى أن فيلسوف الأندلس يفضل الطريق النظرية على الطريق الدينية ؛ وأنه ما استطاع ان ينجو من ورطة هذا القول الذى كثيرا ما جر على آخرين التعذيب والتنكيل ، الا بواسطة هذا الوشاح القصصى الذى يلقيه على النظريات والمذاهب الفلسفية فى رسالته النفيسة .

على أن ابن الطفيل لم يخل من اللوم ، وأرباب الدين يؤاخذونه على أربعة ١ ـ باهماله أمر النعمة وسقوط الطبيعة البشرية ٢ ـ بتفضيله